ماذا في «دروب الحرية»؟

بقلم موريس كرانستون
ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد

تعد « دروب الحرية » (١) نوعا من الزخرفة ، يقصد بها اعطاء صورة اجمالية لطرق الناس المختلفة للحرية، لكنها تموج بتنوع الاساليب، هذا وقد تركها سارتر دون أن يتمها . وقد ظهر الجزءان الاول والثاني « سن الرشد » و « وقف التنفيذ » عام ١٩٤٥ ، وظهر الجزء الثالث « الحزن العميق » عام ١٩٤٩ ، وفي نوفمبر وديسمبر من السنة نفسها نشر سارتر في مجلته « الازمنة الحديثة » فصلين عنوانهما : « صداقة عجيبة » من الجزء الاخير المنتظر . ثم أعلن سارتر بعد هذا أنه لن يكتب فيها المزيد مطلقا .

ويمكن للجزء الاول « سن الرشد » أن يكون رواية قائمة بذاتها وتكون كاملة . ففيها بطل هو ماتيو أفضت به تجاربه المركزة في خلال أيام قليلة من مجموعة اوهام عن الحرية الى مجموعة أخرى وكلها سخيفة . أما الجزء الثاني « وقف التنفيذ » فهو نوع آخر من الرواية . لقد أقام الرواية على نسق التكنيك « الواقعي » الامريكي عن جون دوس باسوس ، وهي محاولة لنقل تاريخ أسبوع ميونخ في فرنسا عن طريق « مونتاج » لردود أفعال أناس مختلفين ، وهو يقطع بسرعة ـ وقد يكون هذا أحيانا في الجملة نفسها ـ ما يقال وما يفكر فيه شخص من الاشخاص الى ما يقال وما يفكر فيه شخص آخر ، وينتقل من الاشخاص الروائيين أمثال ماتيو الى الناس الواقعيين أمثال شامبرلين ودالاديبه . فاذا تذكرنا ما قاله في « ما هو الادب ؟ » فاننا ننتقل من « وعي انسان الى آخر ». ومع هذا ففي الجزء الثالث « الحزن العميق » ينتقل المؤلف الى التكنيك الاشد ، اقناعا والذي نراه في « سن الرشد » لكي نركز انتباهنا مرة أخرى على مصائر جماعة صغيرة من أصحاب النزعات الخيالية . والشذرات المنشورة من الجزء الرابع الناقص ليست الا امتدادا للقسم الاخير من « الحزن العميق » .

لقد قلت ان ماتيو هو « بطل » الكتاب الاول ، لكن من الخطأ الاعتقاد انه الشخصية التي يتعاطف معها أو يعجب بها سارتر بصفة خاصة ، ولا يجب أن نظل نعتقد أنه شخصية تمثل سيرة حياة المؤلف . لقد فعل النقاد هكذا ، فنجد الاستاذ شترن (٢) Stern يشير الى « ماتيو ـ سارتر » وحتى الآنسة موردوخ تقول عن ماتيو : « مما لا شك فيه أنه صورة مصغرة من سارتر » (٣) . وفي الحقيقة ان ما في سارتر في ماتيو اقل بكثير مما في سارتر في روكانتان . (٤) حقا ان ماتيو ـ شأنه في هذا شأن سارتر ـ مدرس فلسفة ثم يصبح جنديا ، بل كل منهما أكثر من محارب ، لكن لا يوجد أي تطابق بينهما . وفي الواقع هناك نوع من التهكم في الطريقة التي يجعل بها هذا المدرس للفلسفة أحد المصابين بخداع الذات دون بقية شخصياته الاساسية .

عندما تبدأ الرواية ، تخبره عشيقته مارسيل أنها حامل ، ويمضي الثماني والاربعين ساعة التالية يحاول أن يجد نقودا يدفعها من أجل عملية الاجهاض . وهو يدقق للغاية حتى لا يدعها تذهب الى امرأة عجوز قذرة تستعمل الطرق البدائية ، وهو كذلك مصمم ضد فكرة الزواج بمارسيل حتى تنجب الطفل . ورغم أنه يحس بأنه شاخ وهو في الرابعة والثلاثين ، فهو يعتقد ان الزواج سيقضي على حريته ، لانه يتصور نفسه رجلا مستقلا للغاية . تقول له مارسيل ذات يوم : « أنت تريد أن تكون حرا ، حرا حرية مطلقة . وتلك هي رذيلتك » . فيتضايق ماتيو ، لقد شرح لها آراءه عن الحرية مئات المرات من قبل ، وهي تعلم أن هذا أحب شيء لديه . لكنها تقول له ثانية : « تلك هي رذيلتك » .

ويسمع ماتيو عن طبيب يعد نجدة يمكنه أن يجري العملية مقابل أربعة آلاف فرنك ، فيتوجه الى أناس مختلفين ـ أمه ، أصدقائه ، مكتب القروض ـ مصمما على الحصول على النقود ، لكن باءت محاولته في اقتراض المال بالفشل . وفي لمسة تهكمية رائعة ، يجعل المؤلف أخا ماتيو البورجوازي المتباهي المسمى جاك (وهو نموذج عند سارتر يمثل « الخنزير ») يتلفظ ببعض الحقائق الهامة . يقول جاك لماتيو: « لو كانت لي آراؤك ، فسأنزه نفسي عن طلب المعروف من شخص بورجوازي ملعون. انني شخص بورجوازي ملعون ... وزيادة على ذلك أنت يا من تحتقر الاسرة ، انما تقضي على الروابط الاسرية وأنت تقترض مني » . فيحاول ماتيو أن يبرر نفسه :

يقول ماتيو : « أصغ الي ، فهنا سوء فهم ، أنا لا أعبأ الا قليلا بما إذا كنت بورجوازيا أم لا . كل ما اريد هو ـ » وهو ينطق الكلمات الاخيرة من خلال أسنان مطبقة وفي نوع من الخجل ـ « أن أستعيد حريتي » .

يقول جاك : « كنت أظن أن الحرية قائمة في المواجهة الصريحة للمواقف التي ينفذ اليها المرء حامدا ، ويتقبل مسؤولياته ... وأنت على أية حال ، قد بلغت سن الرشد يا عزيزي ماتيو المسكين » يقول هذا في لهجة شفقة وتحذير: « لكنك تحاول أن تروغ من هذه الحقيقة للغاية، أنت تحاول ان تتظاهر بأنك أصغر سنا مما أنت عليه . حسنا ... ربما أكون قد ظلمتك ، فربما لا تكون في الواقع قد بلغت سن الرشد ، فهذه السن سن أخلاقية ... ربما أكون أناقد بلغتها أسرع مما بلغتها أنت » .

وكما لو كان ماتيو يريد أن يبرهن على وجهة نظرة أخيه ، أخذ يعزي نفسه بأن ينغمس في صحبة الشباب الفض . فبدأ يخرج مع فتاة روسية بيضاء في الثامنة عشرة ، أسمها بايقيش وأخيها بوريس المصاب بداء السرقة ، وكان أحد تلاميذه . ولا تنفك ايقيش تحاول ان تجتاز امتحان الجامعة ، أما بوريس فهو في التاسعة عشرة وهو أشد ادراكا لشبابه وقد أغرته لولا وهن مفنية هرمة في ناد ليلي . وقد ذهب

---

* .. هذا الجزء اقتطعته من الفصل السابع من كتاب موريس كرانستون : « سارتر » الذي ظهر لاول مرة عام ١٩٦٢ عن دار Oliver & Bayed ضمن سلسلة « الكتاب والنقاد » والذي آمل ان اصدر ترجمته العربية قريبا .

(١) ظهرت الترجمة الكاملة للرواية عن دار الآداب من ترجمة الدكتور سهيل ادريس ، وقد احتفظت بترجمته لعناوين الرواية : أما النصوص داخل المقالة فهي من ترجمتي استنادا الى النصوص المترجمة الى الانجليزية الواردة في تضاعيف الكتاب المذكور .

(٢) يشير المؤلف الى الفريد شترن في كتابه : « سارتر : فلسفته وتحليله النفسي » (المترجم) .

Stern, A. : Sartre , His Philosophy & Psychoaulysis

(٣) كتاب ايريس موردوخ : « سارتر العقلي الرومانتي » Murdoch, S. : Sartre, Romantic Rationalist وقد ترجم محمود رجب الفصل الخاص بدروب الحرية من الكتاب في مجلة الاداب عدد مارس ١٩٦٢ (المترجم)

(٤) بطل رواية سارتر الاولى : « الغثيان » (المترجم) .

الجميع الى ملهى ، فكانت صحبة من اربعة اشخاص تثير الشجن . وماتيو شغوف بان يؤكد حريته في حضور بايفيش ويردد اقوال « جيد » عن « الافعال المجانية » Actes Gratuits اي الاتيان بالافعال التي ليس لديه دافع معقول لها كان يطلب الشمبانيا التي يكرهها وان يفرز سكينا في يده . وسارتر بالمثل يكشف عن سخف مثل هذه الافعال ، وخاصة سخف فكرة جيد من ان السلوك الذي من هذا النوع ليس باية حال من الاحوال تاكيدا للحرية .

وذات صباح ياتي بوريس الى ماتيو وايفيش اللذين يجلسان في مقهى ، ويقول بان لولا قد ماتت وهي نائمة معه ، فهرب في هلع ، وهو الآن قلق بصدد استرداد الخطابات الغرامية التي كتبها لها . فيتطوع ماتيو ان يذهب من اجلهما . وبينما هو ينقب في حقائب لولا يجد ماتيو بعض الاوراق النقدية . وهنا اخيرا يجد فرجا لدفع اجر عملية اجهاض مارسيل . لكن ماتيو يشك طويلا في ان لولا لم تمت وانما هي تحت تاثير مخدر ولسوف تستيقظ . واخيرا تنتاب ماتيو حالة من الشجاعة ويرتد ثانية فيسرق النقود .

وفي الوقت نفسه كانت هناك تطورات اخرى . فان صديق ماتيو الخبيث المصاب بالجنسية المثلية دانيال قد راى مارسيل واثر فيها بانها تريد الطفل حقا . وهكذا عندما يظهر ماتيو في شقة مارسيل ومعه النقود من أجل عملية الاجهاض تثور ضده وتطرده من الشقة . وقيل لماتيو الآن ان دانيال سوف يتزوج مارسيل . ودانيال مستعد ان يعترف ببنوة طفل ماتيو على أنه طفله . وهو يؤكد لماتيو أنه رغم اصابته بالجنسية المثلية ، الا انه سوف « يقوم بواجباته كزوج » .

وسرعان ما يجد ماتيو نفسه وحيدا فان ايفيش التي تحتقره كثيرا كما تحتقره مارسيل تفشل في امتحاناتها وتذهب الى الريف . وينتهي الجزء الاول بهذه الكلمات .

« راقب ماتيو دانيال وهو يختفي ، وفكر : « لقد بقيت وحيدا » . وحيدا لكنني ازداد حرية عن ذي قبل . لقد قال لنفسه في الامسية السالفة : « آه لو لم توجد مارسيل ! » لكنه وهو يقول هذا انما كان يخدع نفسه : « لم يتدخل مخلوق في حريتي ، لقد جففتها حياتي » . وأغلق النافذة وارتد الى الحجرة . ولا يزال عبق ايفيش يحوم في الهواء . استنشق الهواء وتذكر هذا اليوم العاصف . « جعجعة ولا طحن » .

هكذا فكر . لا شيء : لقد منحت له الحياة من أجل لا شيء ، انه لا شيء ومع ذلك فلن يتغير : انه كما خلق ... تثاءب : لقد انهى يومه وكذلك انتهى من شبابه . لقد قدمت الاخلاقيات الحسنة المختلفة خدماتها له في خداع ـ الابيقورية الواعية ، التسامح عن طريق الابتسامة ، الاذعان ، الحس المشترك ، الرواقية ـ قدمت له كل المعاونات التي يستملحها الانسان ، دقيقة بعد دقيقة ، كحكم قاس على فشل الحياة ... تثاءب ثانية وهو يكرر لنفسه : « حقا ، حقا للغاية : لقد بلغت سن الرشد » .

وتبرهن حوادث الجزءين التاليين لانتهاء « سن الرشد » على أنها مليئة بالتهكم . فلا يزال ماتيو يخدع نفسه ، لا يزال يبحث عن الحرية في أن يظل غير ملتزم ولا يزال يعتقد أنه « كما خلق » ، انه النظام ، هذا كل ما هناك ، ولم يعد أشد تعقلا . وظل حائرا كالابد . فـ « يقرر » أن يذهب ليقاتل في اسبانيا ، لكنه لا يذهب الى هناك مطلقا ، وكان على وشك أن « يضاجع زوجة أخيه أوديت التي تحبه ، لكن أوراق تجنيده التي أرسلت أثناء أزمة ميونخ تستدعيه « في النو » . وعندما كان يعبر مركز نيف « يقرر » أن ينتحر ، لكنه يعدل عن قراره ويقول : « ربما في المرة القادمة » .

ويصل ماتيو الى فرقته ، وفي الجزء الثالث « الحزن العميق » الذي تدور حوادثه في مايو ويونيو عام ١٩٤٠ نجده في الجبهة . ويهجر

ـ التتمة على الصفحة ٧٨ ـ

صدر عن :

دار الطليعة للطباعة والنشر

ص.ب ١٨١٠٣ ـ تلفون ٢٥٧١٧٨

*

حين فقدنا الرضا

رائعة جون شتاينبك الجديدة
ترجمة سميرة عزام

التلميذ والدرس

تاليف مالك حداد
ترجمة الدكتور سامي الجندي
نموذج للادب الثوري الجزائري

وجها الحياة

تاليف البير كامو
ترجمة الدكتور سامي الجندي
ثلاثة كتب في كتاب واحد

ثائر محترف

تاليف مطاع صفدي

الفتح القصصي الذي ارتفع بالقصة العربية ذات الفكرة الى مستوى عالمي جدير بالاعجاب والتسجيل

صمت البحر

تاليف فيركور ـ ترجمة وحيد نقاش

القصة التي جعلها جان بول سارتر عمادا لاروع فصل نقدي صدر عنه في تحديده للادب

نهر الرماد

خليل حاوي — الطبعة الثالثة

الملحمة الكبرى في الشعر العربي الحديث ، أضيف اليه نشيدان وأعيد النظر في بعض الاناشيد السابقة .

ماذا في ((دروب الحرية))

ـ تتمة المنشور على الصفحة ١٦ ـ

الضباط فرقتهم أثناء زحف الالمان ، والناس الذين دمروا أخلاقيا ولا يفكرون الا في العودة الى بيوتهم يسكرون وهم ينتظرون الهدنة . ثم يبدو في القرية التي تعسكر فيها فرقة ماتيو فصيلة عسكرية من الطراز الاول في آلاي شاسير . ولقد استهوت ماتيو وصديقا له من العمال صفاتهم العسكرية فاستمالوهما لكي يسمحوا لهما بالالتحاق بالفرقة في برج كنيسة حيث يبذلون آخر محاولة للصمود في وجه العدو .

وهناك في البرج ، حيث قدر أن يقضي الالمان على ماتيو ، نجده وهو الذي لا يتأثر ، أمامه ساعة أخيرة من العمل البطولي :

« لقد شق طريقه الى السور ، ووقف هناك يطلق النار . كان هذا انتقاما على مستوى كبير . كل طلقة من طلقاته انما تنتقم لشك من شكوكه القديمة . « طلقة من أجل لولا التي لم أستطع أن أسرقها ، وطلقة من أجل مارسيل التي كان يجب أن أخلو بها ، وطلقة من أجل أوديت التي لم ارد ان اقبلها . وهذه الطلقة من اجل الكتب التي لم اجرؤ ان اكتبها وهذه من أجل النزهات التي لم أقم بها اطلاقا ، وهذه من أجل كل واحد بصفة عامة ممن أردت أن أكرهه وحاولت أن أفهمه » . أطلق النار وكانت الالواح تتكسر من حوله . سوف تحب جارك كحبك لنفسك ـ طلقة ! في وجه هذا اللوطي ، أنت لن تقتل ـ طلقة ! في خيال المآته هذا المقابل . كان يطلق على الناس ، على الفضيلة ، على العالم كله . الحرية هي الرعب ... . لقد كان رأسه ملتهبا . كانت الطلقات تنطلق حوله مرة في الهواء . « ان العالم يشتعل وكذلك أنا معه ... واستمر يطلق الرصاص. لقد اطلق الرصاص . لقد اغتسل..انه قوي للغاية، انه حر».

وربما يسيء الواحد منهم مقاصد سارتر عندما انتهى بماتيو الى هذه النهاية . ان الجو العام لهذا القسم من الرواية هو جزء « بطولي » تماما . ان جبن اولئك الذين لا يريدون أن يقاتلوا . انما يظهر من خلال عيون حادة وقحة . من الواضح ان الصفات العسكرية للآلاي قد ذكرت كموضع باعجاب ، وفي موت ماتيو هناك اثر خفيف فج من كبلنج أو فيلم عن الحرب من أفلام هوليود . وعلى أية حال كما أشار فيليب تودي ناقد سارتر الدقيق ، فان ماتيو ليس المقصود به أن يكون « بطل القتال الذي يصنع الخير » ، ان المقصود به أن يكون تجسيدا لما أسماه هيجل (الحرية المرعبة) » (١) ويموت ماتيو وهو « يعتقد » أنه حر في النهاية ، لكن هذا الموت في عين المؤلف ليس الا آخر أخطاء ماتيو العديدة. فليس حقا عند سارتر ان«الحرية هي الرعب» . وهكذا فان ماتيو الذي تأمل كثيرا في الحرية واهتم بها للغاية ، قد مات في شجاعة، لكن دون أن يكشف حقا ما هي الحرية .

أما البطل المحوري الآخر عند سارتر في « دروب الحرية » فهو دانيال ، وقد ترك المؤلف مشكلته الرئيسية دون حل . فدانيال لوطي . أو هو ليس لوطيا في عين نفسه ، انه لوطي في عيون الاخرين . فهو من جهة يريد أن ينكر جنسيته المثلية ويتظاهر بأنه مجرد شخص « مختلف » عن الاخرين . ومن جهة أخرى ، حيث أنه لا يستطيع أن يهرب من كونه يرى باعتباره شخصا عنده جنسية مثلية ، وان نظرة « الآخر » تجسده هكذا ، فهو يتوق أن يصبح جنسيا مثليا كما يصبح الشيء المادي شيئا ، وأن ينهي شعوره بالاثم عن طريق التخلص من مشاعره جميعا . فهو يتوق أن « يصبح حجرا ، بلا حركة ، بدون شعور ، أعمى ... أن يصبح لوطيا كما تكون شجرة الباوط شجرة بلوط . أن ينطفىء . أن يغلق عمقه الداخلي » . لكن لا يتحقق حلم دانيال بطبيعة الحال . الوعي لا يمكن الا أن يكون وعيا ؟ الانسان لا يستطيع الا أن يكون ذاتية Subjectivity تخطيا Transcendence وجودا لذاته .

وهكذا يسير دانيال في طريق حياة اللوطي الشاعر بالاثم ، وهو يعاقب نفسه (لو أمكن استعمال هذا التعبير الفرويدي في تلخيص قصة سارترية) ويعاقب الاخرين . لكن جهود دانيال في معاقبة نفسه غير ذات أثر . لقد صمم على قتل القطط التي يحبها ثم يعدل ، وهو يقرر أن يخصي نفسه ثم يعدل . وهو يمضي في زواجه بمارسيل (نكاية في ماتيو) لكن وهو في شهر العسل معها ، يتمرد على جسدها الانثوي ، ويثيره جسد ذكر شاب هو جسد بستاني ، فيتركها . ان اثم دانيال يعبر عن نفسه ايضا على شكل الحكم الشامل المليء بالغرور على سلوك الناس الآخرين بما في ذلك رفاقه من أصحاب الجنسية المثلية .

وهناك منظر فريد في الصالون الذي يصور تكوين دانيال السيء من ناحية العقيدة والنظرية السارترية عن « النظرة » . يذهب دانيال الى الصالون ولديه النية على انتقاء شاب من الشبان الذين يترددون هناك ، ينتقيه بنفوده . وبينما هو يفحص الغلمان في استمتاع ، يدخل رجل غريب مسن الى المكان ويكون صداقة سريعة مع أحدهم . فيشعر دانيال انه « قد استشاط غضبا حارقا » ضد القادم الجديد ، ويقرر أن يعاقبه . فيقرر أن يتبعه عندما يرحل ، يتصور جمال الفكرة لو أصبح مخبرا ويستجوب الرجل عن اسمه « ويرده الى حالة من الفزع » وبينما هو يتلذذ بالفم الذي سيعانيه ضحيته ، يسمع أحدهم وهو يخاطبه من ورائه بانه أحد عشاقه السابقين ، بوبي ، وكان يراقبه من غير أن يراه أحد . وعندما يصل اليه بوبي ، يستدير الرجل العجوز ويتطلع ، وعندما يرى دانيال واقفا هناك مع شاب فظ بجانبه ، يبتسم ابتسامة العارف . فيضطرب دانيال غضبا أكثر من ذي قبل . يقول دانيال لنفسه وهو اشد اضطرابا : « لقد حدث ورآني مع هذا الغلام واعتبرني مبتدئا » . ان دانيال يكره ما يسميه « مبولة الاخاء الماسوني » : « انه يتصور كل واحد فيها . انني افضل ان اقتل نفسي في التو على ان ابدو كهذا اللوطي العجوز » .

ونحن نجد أن دانيال خلال نزعته السيئة يتحول الى المسيحية ، لكن دينه لا يكون الا مجرد تدليس ، شأنه في هذا شأنه في الزواج . وتأتي لحظة ابتهاجه أخيرا مع سقوط فرنسا . وعندما يعود الى باريس ويرى كل شخص تقريبا يهرب في ذعر أمام زحف الالمان ، يعيش دانيال تجربة فرح برغماء حقيق :

« لقد ظل عشرين سنة تحت المراقبة . لقد كان هناك جواسيس حتى تحت سريره . وكل عابر سبيل كان شاهدا على محاكمته ، كان قاضيا ، او كان الشخصين ، كل كلمة يقولها تستعمل كقرينة ضده . والا ، في لمحة ـ الهرب » .

ان الناس الذين حكموا على دانيال بأنه لوطي يبدون في حالة هرب تام ، لقد انزاح عبء كبير عنه . لقد انهزم الآخرون . ويبتسم دانيال لرؤيته الجنود الالمان الملوحي الوجوه الانيقين عندما تحملهم العربات الى الشوارع المهجورة . انه يتجول حتى نهر السين ، وهناك ـ بالصدفة ـ يواجه شابا فرنسيا جميلا هو فيليب ، وهو من المسالمين المحظوظين ، وكان على وشك الانتحار . وقد أغرى دانيال فيليب عن طريق صبره اللوطي الطويل أن يغير رأيه ، وهو الآن يتألق بلا غم وفي أعماقه الوسائل الفنية القديمة لهتك العرض ، فيأخذ دانيال فيليب الى شقته ، ويستعد لمزاولة الجنسية المثلية معه وذلك عن طريق تعليمه كيف يكون حرا . ويساله فيليب كيف يمكن أن يعلمه الحرية .

« قال دانيال وله مظهر المضطرب المرح : « يجب أن نبدأ باذابة القيم الخلقية . هل أنت طالب ؟

قال فيليب : « كنت طالبا » .

ـ القانون ؟

ـ كلا ، الآداب .

ـ هذا أفضل ، في هذه الحالة ستكون قادرا على فهم ما سأقوله

---

(١) مقتبسة من كتاب فيليب تودي : جان بول سارتر ، دراسة أدبية وسياسية (المترجم)
Thody, P. : Y.P. Sartre, A Literary & Political Study

لك : الشك المنهجي ـ هل بينت ما أعنيه ؟ « التحلل المتعمد » الذي كان عند رامبو يجب أن نبدأ عملية تحطيم كاملة ، لكن لا عن طريق الاقوال ، بل عن طريق الافعال . كل شيء اقترضته من الآخرين سوف يتلاشى في الهواء » .

وهذا هو آخر ما نسمعه عن دانيال وفيليب ، لكن يمكن ان نفترض أن علاقتهما سوف تتطور وتنتهي كما تطورت وانتهت العلاقة بين لوسين الشاب وبرجر اللوطي في قصة سارتر القصيرة الاولى « طفولة زعيم » حيث أن تجربة البطل المصاب بالشذوذ لا تجعله يريد شيئا أكثر من أن يكون سويا ومن ثم ينتهي الى فاشي بورجوازي . ومرة أخرى ، يمكننا أن نتيقن أن أي نوع من الحرية التي يمكن أن يتعلمها فيليب من دانيال ستكون سخرية أشد من أي شيء يعتقد ماتيو أنه قد أحرزه .

وبجانب دانيال وماتيو ، هناك شخصية تقوم في جزء من أجزاء « دروب الحرية » والتي يكون « طريقها للحرية » مهما للغاية ، رغم أن طريقها يبدو زائفا . هذه الشخصية هي برونيه ، وهو عضو متحمس مكرس حياته في الحزب الشيوعي . وهو من الناس الذين يعتقدون ان مشكلة الحرية تحل بالتحديد الماركسي للكلمة على أنها « التعرف على الضرورة » وفي اول الرواية يحاول برونيه أن يغري ماتيو على الالتحاق بالحزب الشيوعي . يقول له برونيه : « لقد نبزت كل شيء لتصبح حرا . خذ خطوة أبعد ، انبذ حريتك وسوف ينضاف كل شيء اليك » .

والسياسة بحر سهل عند برونيه أثناء سنوات الجبهة المتحدة ضد الفاشيست ، بل وحتى بعد تكوين الحلف النازي السوفييتي ، فهو يستمر يعتقد ـ دون تمحيص ـ في حكمة الزعماء الشيوعيين . انه كجندي يسمح لنفسه بأن يؤسر عى يد الجيش الالماني الزاحف ، ثم يبدأ تنظيم خلية شيوعية في معسكر الاعتقال . ان ما يكربه هو بحث الذات الفردة وعدم وجود دعامة عند الجندي الفرنسي المتوسط ، وهو لا يصبر على أن يبدأ الالمان ابادتهم حتى يمكن اعادة الروح المعادية للنازية .

ويلتق برونيه في معسكر الاعتقال بمثقف غامض اسمه شنيدر ، ويكون معه صداقة ، وهو شخص يبدو عليه أنه يعرف كل شيء عن الشيوعية ، وهو يحاول أن يحط من شأن عقيدة برونيه في قيادة الحزب . واكثر من ذلك ان تنبؤت شنيدر عن التطورات السياسية تحققها الاحداث . وعندما ينكشف مدى التحالف الروسي الالماني ، وتعود جريدة « الاومانتيه » الى الظهور بتصريح من النازي ، تضيع جميع جهود برونيه في خلق حركة معادية للنازي في المعسكر . ويظهر لنا شنيدر على أنه فيكاريوس ، وهو كاتب شيوعي معروف للغاية ترك الحزب احتجاجا ضد التحالف النازي السوفييتي . ويبذل برونيه قصاراه كي يتلاءم مع الخط الحزبي الجديد ، لكن ارتباطه العاطفي بشنيدر ـ فيكاريوس قد أصبح الآن عظيما حتى أنه يقرر أن يشترك معه في الهرب. وهناك شيوعيون آخرون في المعسكر ـ على أية حال ـ يشون لدى الالمان ، فيطلق الرصاص على فيكاريوس وهو يحاول أن يهرب . ويموت بين ذراعي برونيه :

« يقول فيكاريوس : « الحزب هو الذي اغتالني » » .

غمغم برونيه : ليته لا يموت . لكنه يعرف أن فيكاريوس على وشك أن يموت ... لا توجد قوة للانسان تستطيع أن تواجه هذا العذاب المطلق . انه الحزب وقد قتله . حتى لو كسبت جبهة الاتحاد السوفييتي ، فان الناس وحيدون . لقد تعلم برونيه المزيد ، لقد غاصت يده في شعر فيكاريوس القذر، وصاح كما لو كان يريد أن يخفف الرعب، كما لو كان في استطاعة رجلين ضائعين يمكن في اللحظة الاخيرة أن يقهرا الوحدة .

« الى الجحيم أيها الحزب ! انك أنت صديقي الوحيد »

فيكاريوس لم يسمع ... »

ان فيكاريوس ميت . وتتوقف الرواية وبرونيه يرتد الى الحراس الالمان ، ويتأمل مدى اليأس الذي ينتظره . ونحن نترك برونيه ـ كما نترك روكانتان ـ على حافة النجاة . لكننا لا نعرف شيئا عن مستقبله . وخلال الرواية حتى المنظر الاخير مع فيكاريوس ، يجسد برونيه ـ كما بين سارتر ـ نوع الانسان الذي هرب الى القيم الجاهزة للحزب الشيوعي كمهرب من عذاب الاختيار الاخلاقي .

وهكذا يمكننا أن نقول عن رواية سارتر « دروب الحرية » التي لم تنته أنه ولا درب من « دروب الحرية » التي يسلكها أشخاصه العديدون في رأيه هو الطريق الصحيح ، رغم أن القارىء ربما تعلم شيئا عن طريق عملية معارضة واستبعاد هذا الاتجاه الذي يعتقد سارتر بالفعل أنه يقع فيه طريق الحرية .

القاهرة

ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد

صدر

الثورة ... والجماهير

مراحل النضال العربي ودور الحركة الثورية ١٩٤٨ - ١٩٦١

تأليف: ناجي علوش

دار الطليعة - بيروت